

إسهامات اللسانيات التداولية في تعليمية الخطاب الجامعي

Contributions of pragmatic linguistics to the teaching of university discourse

كخديجة حاج علي²

ياسين فرغوري¹

عبد الحميد ابن باديس - مستغانم / الجزائر

المدرسة العليا للأساتذة - بشار / الجزائر

khadidja0608@gmail.com

yassine.farfouri@ens.univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2020/06/01

تاريخ القبول: 2020/01/30

تاريخ الاستلام: 2019/09/01

ABSTRACT:

ملخص البحث

Since its inception, linguistic theories have been interested in language as a field of scientific study and neglected speech, pragmatics came to give consideration to speech while using it in specific contexts, Since the educational discourse is primarily communicative, it is of pragmatic nature, It makes us wonder what this newcomer can do for educational discourse in an effort to bring understanding And the delivery of information between the professor and his students.

Keywords: Pragmatic linguistics, didactics, professor, student, university discourse.

لقد اهتمت النظريات اللسانية منذ نشأتها باللغة كمجال للدراسة العلمية وأهملت الكلام، فجاءت التداولية لترد الاعتبار للكلام أثناء استعماله ضمن سياقات محددة، وبما أن الخطاب التعليمي خطاب تواصل بالدرجة الأولى، فإنه يكتسي طابعا تداوليا، يجعلنا نتساءل عما يمكن أن يقدمه هذا الوافد الجديد للخطاب التعليمي في مسعى تقريب الفهم وإيصال المعلومة بين الأستاذ وطلابه.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات التداولية؛ التعليمية؛ الأستاذ؛ الطالب؛ الخطاب، الجامعة، الإسهامات.

1. مقدمة:

إنّ ما تقدمه الدراسات الوظيفية وبعدها التداولية من كيفية دراسة اللغة أثناء الاستعمال كحل للقضية اللغوية التي عمّرت ردحا من الزمن في كنف البنيويين، قد غير توجه اهتمام العديد من الباحثين والدارسين اتجاه الدراسات اللسانية القديمة- التي كانت تدور في بوتقة واحدة إثر تبنيها لآراء

¹ المؤلف المرسل: ياسين فرغوري

النظريات البنيوية الشكلية-إلى العناية بالقضايا المتعلقة بالكيفية التي تستعمل بها اللغة في تجليها الحقيقي، أي في الاستعمال.

وبما أن التداولية تعبير «يغطيه العديد من التيارات من علوم مختلفة، تتقاسم عددا من الأفكار. واللسانيين ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع والمناطق، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني»¹، فإنها استطاعت الخروج من الفخ الذي سقط فيه البحث اللغوي البنيوي؛ وقامت بإدراج أبعاد جديدة تم إقصاؤها لأسباب تاريخية إبستمولوجية من البحث اللساني؛ ولم يعد السياق المتعدد الأبعاد عناصر عرضية يتعين على الباحث إقصاؤها بصرامة من البحث اللساني، بل صارت أسسا يستحيل الاستغناء عنها في فهم أبعاد اللغة والخطاب، كما أنها تمثل حلقة وصل هامة بين حقول معرفية عديدة، منها: الفلسفة التحليلية، ممثلة في فلسفة اللغة العادية، وعلم النفس المعرفي ممثلا في نظرية الملاءمة على الخصوص، وكذا علوم التواصل، واللسانيات بطبيعة الحال.

ولقد تطور هذا التصور للتداولية على يد فلاسفة اللغة التحليليين أمثال أوستين وسيرل وفتجنشتاين، بعد التأسيس لتداولية الأفعال الكلامية التي أضفت على اللغة بُعد المؤسسة التي تضمن تحويل الأقوال إلى أفعال ذات طابع اجتماعي ومؤسسي.

فلا يخفى على أحد أهمية المنهج التداولي ودوره في تبسيط الخطاب التعليمي لطلاب الجامعة، لذلك سنحاول التطرق إلى واقع إسهامات اللسانيات التداولية في تعليمية الخطاب الجامعي، والمتأمل اليوم في مفهوم اللسانيات التداولية، هذا الوافد الجديد، يرى أنها تتقاطع كثيرا مع مفهوم حال الحديث أو الموقف، وهذا ما يسميه علماء العرب بـ"سياق مقتضى الحال"، ولو نقبنا في البلاغة العربية لوجدنا مفاهيم ومسائل تداولية شتى، كل هذا جعلنا نتساءل عن مدى إمكانية تدريس علوم اللغة العربية التي هي مجال اختصاصنا وفق اللسانيات التداولية، والتي كانت منهجا تعليميا قبل أن تتحول إلى آلية لقراءة النصوص والخطابات بين المرسل والمتلقي، أو الأستاذ والطالب في عملية التعليم، وقد ترد بعض الأمثلة من علم البلاغة في بحثنا عرضا، لتدل على التقاطع بين العلمين، فالبلاغة كعلم جليل يسهم في تعليم الطلاب صناعة الأدب والأداء الرفيع وتنمية الذوق والخيال والتأثير في المتلقي، وكذلك تعالج التداولية كل ما له علاقة بالواقع وبالكلام المتداول بين الناس وبمحاولة التأثير على الآخرين، وهذا ما أملى علينا الإشكالية التالية:

فما مفهوم اللسانيات التداولية ؟ وما مدى إمكانية تبسيط الخطاب التعليمي الجامعي حتى يحصل الاستيعاب والفهم ؟ وكيف تسهم اللسانيات التداولية في ذلك؟.

2. تحديد المفاهيم:

إنه لمن الأنسب، قبل أن نبدأ حديثنا عن إسهامات اللسانيات التداولية في تعليمية الخطاب الجامعي، أن نتوقف مليا، أمام المصطلحات التالية: التداولية، التعليمية، الخطاب التعليمي الجامعي.

1.2 مفهوم التداولية:

أ/ التداولية لغة:

لقد اقترح طه عبد الرحمن مفهوم "المجال التداولي" لتقديم منهج التقريب التداولي في دراسة التراث الإسلامي فقال: «إنَّ الفعل "تداول" في قولنا: (تداول الناس كذا بينهم)، يفيد معنى (تناقله الناس وأداروه بينهم)»⁽²⁾ في كلامهم أو في معاملاتهم.

ب/ اصطلاحاً:

التداولية هي نتاج لدراسات مختلفة ومتعددة ومتشعبة، ولعل تكوُّنها من مجالات معرفية متنوعة جعل منها نظريّة أكثر ثراءً وتفتحاً وشمولية؛ كونها جعلت من تلك اللغة التي نُظر إليها من قبل على أنَّها مادة جامدة، أكثر حيوية وأكثر صلاحية.

ومما لا شك فيه أنَّ «الدرس اللغويّ التداوليّ يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، لأنَّ اللغة لا تؤدي وظائفها إلّا فيه، فليست وظائف مجردة. وبما أن الكلام يحدث في سياقات اجتماعية، فمن المهمّ معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز»⁽³⁾ بغية تجاوز الجانب اللغوي الضيق الذي حصرت فيه اللغة عقداً من الزمن.

وهكذا يتبين لنا أن من بين أنشطة التداولية دراسة ظروف وملابسات الواقع الفعلي لاستعمال اللغة، وكذا البحث عن أغراض ومقاصد المتكلم، ومعرفة حال المتلقي (مفرد، جماعة)، بالإضافة إلى دراسة الآليات المعرفية المركزيّة التي تتدخل في فهم الملفوظات ومعالجتها.

2.2 اللسانيات التداولية:

تعدّ التداولية في الآونة الأخيرة من أكثر المناهج اللسانية استقطاباً، لكونها تهتم بمعالجة العلاقة بين اللغة (حال الاستعمال) وأبعادها الخارجية الاجتماعية والتواصلية، كما أنها ترتبط «أساساً بأفعال الكلام أو الأفعال الإنجازية، حيث أولت الجانب الإنجازي مكانة خاصة في تحليل الكلام (القول) وفق متغيرات الوضع المقامي والخلفيات النفسية والمعرفية للمتكلم وعلاقته بالمستمع ومقتضيات المقام»⁽⁴⁾. وهكذا نجد أن اللسانيات التداولية اختصت بدراسة الكلام، والمتشكل من العناصر التالية: المتكلم وخلفياته (النفسية، المعرفية... الخ)، علاقة المتلقي بالمتكلم، الخطاب، الوضعية التبليغية وما يكتنفها من تغيرات سياقية ومقامية.

وهذه العناصر نجدها في الخطاب التعليمي متمثلة في: الأستاذ، الطالب، الدرس أو المحتوى، الوضعية التعليمية، الآلية التبليغية المتخذة من قبل الأستاذ.

3.2 التعليمية (Didactique):

إنَّ التعليمية هي النظام العلمي الذي يهتم بدراسة عناصر العملية التعليمية: الأستاذ، الطالب، المادة التعليمية (الخطاب)، طرائق التعليم، والوسائل التعليمية.

فهي تركز على التواصل التفاعلي بين الأستاذ والطالب بغية تحقيق غايات وأهداف تعليمية مسطرة، وأكدت الدراسات المعاصرة على «أن التعليم والتعلم كلٌّ متكامل حيث إن نشاطات كل طرف في العملية التعليمية يربطها التفاعل المنطقي مع الطرف الآخر، باعتبار أن التعلّم تأثير داخلي يتجه أو ينطلق من داخل ذات الفرد نحو الخارج أي يمثل مخرجات والتعليم تأثير خارجي يتجه نحو الذات فهو يمثل ما تستوعبه الذات»⁽⁵⁾. ومعنى هذا أن التعليمية تهتم بتفعيل قدرات المتعلم، وتهدف إلى جعله عضوا نشطا متفاعلا في العملية التعليمية.

4.2 الخطاب التعليمي الجامعي:

إنّ موضوع الخطاب في الدراسات اللغوية هو موضوع حديث النشأة، فقد ساهم طرفاه (المتكلم والمستمع) بشكل فعالٍ في تكوينه وجعله خطابا متماسكا ومتشابكا، والخطاب التعليمي هو ذلك الخطاب الذي يكتسي طابعا تداوليا، يفترض وجود متكلم ومخاطب وإرادة من الجانبين للتأثير في الآخر، وتحدد طبيعة الخطاب بنوعية العلاقة بين المتخاطبين ومقتضى الحال، ويتم هذا التواصل عبر قناة يتم نقل الخبر بواسطتها.

لا غرو أنّ الخطاب التعليمي الجامعي هو الحصيلة العلمية واللغوية في العملية التعليمية التعليمية بين الأستاذ والطالب، فهو «خطاب قيل من قبل، سواء على لسان الآخرين أو على لسان الأستاذ الذي يحاول تبسيطه وجعله في متناول الطلبة (المتلقين). ففعل التعليم في الجامعة لا ينفصل بسهولة-كما نعتقد- عن علم المعرفة»⁽⁶⁾، لأنّه عملية مستمرة تؤدي إلى اكتساب معارف ومعلومات وأفكار ومفاهيم جديدة، يصوغها الأستاذ في شكل قوالب: لغوية، نحوية وتركيبية... الخ، ليدركها الطالب بكل سهولة ويسر.

ونشير في الأخير إلى أنّ الخطاب التعليمي مكوّن أساسي من مكونات العملية التعليمية، ونظرا لأهميته ينبغي أن يُبنى على مقاصد نفعية تحقق للطالب الغرض المتوخى من التعليم (الفهم والإفهام)، بحكم أنه «عبارة عن خطاب يتم فيه تحويل المادة العلمية إلى مادة (خطاب) ذات طابع تعليمي. وهو أيضا خطاب يتكرر فيه خطاب الآخر، وهي ميزة خاصة بالعمل التربوي»⁽⁷⁾، يستعملها الأستاذ في تحديد وضبط المفاهيم، أو في اختيار التعليقات، أو في تقديم أفكار وآراء جديدة حول نظرة مغايرة لمضمون فحوى القول الملقى على الطلبة.

3. إسهامات المنهج التداولي في تعليمية الخطاب الجامعي:

لعلنا لا نعيد عن جادة الصواب إذا قلنا أن العديد من الدراسات والحقول المعرفية من مختلف المجالات اتجهت مؤخرا إلى تبني المبادئ والقضايا التي طرحها الاتجاه التداولي على الساحة العلمية، خاصة تلك القضايا المتعلقة بعناصر العملية التواصلية: المتكلم، المتلقي، الخطاب، الوسيلة، السياق والمقام.

ومما ينبغي الإشارة إليه هو أن العملية التعليمية عملية تواصلية بالدرجة الأولى بين الأستاذ والطالب حول معرفة معينة، أو درس أو فكرة أو محاضرة في مجملها (خطاب)، والتداولية تعنى بتحليل الخطابات.

انطلاقاً من هذا المبدأ لجأ المجال التعليمي إلى المنهج التداولي ليمده بآليات تحليل الخطاب، لذلك سنحاول عرض نصيب التعليم من اللسانيات التداولية التي من شأنها أن تفيد الخطاب التعليمي بأدوات إجرائية في تحليل الخطابات أهمها:

1.3 الأفعال الكلامية:

يرى أوستن أن الأفعال الكلامية هي كل قول إنجازه تأثيري، يحقق أغراضاً تتعلق بالمتكلم، وغايات تتعلق برد فعل المتلقي⁽⁸⁾ ونلاحظ من خلال هذا التصنيف أن أوستن قد حصر مفهوم الأفعال الكلامية في القول الإنجازه فقط.

بينما نظر "سورل" تلميذه إلى هذا التصنيف على أنه غير كافٍ، وانطلق من أسس منهجية: الغرض الإنجازه، اتجاه المطابقة، شرط الإخلاص⁽⁹⁾ لإعادة تصنيف الأفعال الكلامية.

ويمكن تلخيص هذه التصنيفات في الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة كالآتي:

أ/ الأفعال الكلامية المباشرة: ونقصد بها مطابقة المعنى «لما يريد المرسل أن ينجزه مطابقة تامة ودالة على قصده بنص الخطاب»⁽¹⁰⁾.

ب/ الأفعال الكلامية غير المباشرة: تتمثل في كل الأقوال التي يعبر بها المتكلم «بشكل ضمني، عن شيء آخر غير المعنى الحرفي؛ مثلما هو الشأن في التلميحات والسخرية والاستعارة وحالات تعدد المعنى»⁽¹¹⁾ وغيرها.

ومنه نستنتج أن الخطاب الكلامي يحمل في طياته معاني ذات طابع خبري وأخرى إنشائي، حيث ينقسم الخطاب الخبري أو ما يعرف بالعبارة الخبرية إلى قسمين: خبر حقيقي وخبر مجازي بحسب مقصدية المتكلم، أما الخطاب الإنشائي أو العبارة الإنشائية فتقسم إلى قسمين أيضاً: الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، وبالتالي فإن الاستعمال اللغوي الذي ينتج عنه الفعل الكلامي، يسمح بتحقيق أفعال مادية أو معنوية مثلاً في حالة الطلب الذي ينتج عنه العطاء، أو النهي الذي ينتج عنه الامتناع.

فتنظر نظرية أفعال الكلام إلى عملية التخاطب على أنها مخاطبة مرتبطة بموقف تعبر عنه، فالطلب يعبر عن رغبة في شيء ما، ومدحه يعبر عن الرضى، والشكر يعبر عن امتنان، والاعتذار يعبر عن ندم، إذ هناك علاقة معرفية يمكن إقامتها بين هذا المبحث من البلاغة العربية واللسانيات التداولية، وهناك اتفاق بينما ذكره العرب وبين ما جاء به "أوستن" فجعل الجمل الخبرية قسمين: جمل وصفية يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية لا تصف الكون فلا تخضع لذلك الحكم، ويقاس النجاح -وفقاً لهذه النظرية - بمدى اكتشاف المتلقي للموقف المعبر عنه من خلال فهم مقصد المتكلم. وقد لفتت هذه النظرية الانتباه إلى أن اللغة ليست للإخبار ونقل الأفكار فقط، بل تؤدي أيضاً وظيفة التأثير الاجتماعي في الآخرين عبر ما يعرف بصيغ العقود والصيغ الإنشائية وتأثير الأستاذ في طلابه من باب أولى.

ومن كل ما تقدم عرضه نلاحظ أن دور الأستاذ يكمن في مساعدة طلابه على التفريق بين الأفعال التقريرية، والأفعال الإنجازية في ظل سياق الخطاب التعليمي.

2.3 القصدية (الاستلزام الحواري):

يستقي مفهوم القصدية شرعية وجوده في نوايا المتكلمين أثناء التواصل والتبليغ، حيث «لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد»⁽¹²⁾، فيكتسب الملفوظ من خلاله (القصد) دلالة تسمح بإمكانية وضوح المعنى في ذهن المتلقي.

ويدعو أصحاب نظرية الاستعمال اللغوي-فلاسفة اللغة العادية (أوستن، سيرل...) إلى «التخلي عن دراسة اللغة كبنية وعن دراستها كتراث من أجل اختزالها إلى الأفعال القصدية، فالتكلم يريد تحقيق مسعى معين، أي أنه يقصد شيئاً بكلامه، وحينما يتعرف القارئ والسامع على مراد المتكلم يكون قد توصل إلى فهم لغته، فالمفردات المجردة عن القصد مجرد لغو»⁽¹³⁾. أي أن الأفعال والأقوال الكلامية التي يبيدها المتكلم تحمل في طياتها مقاصد معينة، يحاول المتلقي التعرف عليها، لتتضح له غاية التكلم.

كما كان القصد مدار البحث عند البلاغيين فهو المركز في بيان الجاحظ ومعاني السكاكي، وهو الأحوال والمقاصد، وقد كان عبد القاهر الجرجاني من أكثر علماء التراث الذين استعملوا مصطلح القصد، إذ كان محور نظرية النظم عنده، وأشار في مواطن عديدة بأن القصد هو المعنى، بل كان يرى في أحيان كثيرة أن القصد يتجاوز المعنى إلى طريقة إثباته وتقديره⁽¹⁴⁾.

إنّ لهذا المبدأ (المقصدية) أهمية كبيرة في العملية التعليمية خاصة فيما يتعلق بتحليل الخطابات اللغوية وتأويلها، فهو مرتبط بالسياق، ويدعو إلى إظهار الأداء الفعلي الإنجازي للمتكلم⁽¹⁵⁾، لأن فهم المتلقي (الطالب) لمعنى الخطاب الموجه إليه مرتبط بوضوح مقصدية المتكلم، وهذا الأخير مطالب بعدم استعمال العبارات الغريبة تجنباً لغموض المعنى.

ومن ذلك يمكن القول بأنّ مقصدية الأستاذ تلعب دوراً أساسياً في عملية التأويل؛ لأنّ العمليات التأويلية وعملية الإنتاج النهائي للخطابات التعليمية، تبنى على مقصدية الأستاذ؛ أي نيته من تبليغ المعرفة اللغوية: الإخبار، الإنشاء، الوصف، التقرير، الإثبات... وهكذا، فحمولة الخطاب تتضمن في ثناياها القصد المراد إيصاله للطالب المتلقي الذي يمارس عملية الفهم انطلاقاً من مدركاته التحليلية، فيفكك الخطاب، ثم يؤوله انطلاقاً من كفاياته السابقة، وبالتالي يأخذ الخطاب أبعاداً متعددة في جانب التدرج.

3.3 متضمنات القول (Les Implicites):

إنّ الكلام الذي يدور بين المتكلم والمتلقي يتضمن معاني صريحة (ندركها من المظهر الحرفي للملفوظات)، وأخرى ضمنية نتوصل إليها من خلال الاستنتاج الناتج عن المعنى الحرفي، كمثال توضيحي: "أثناء العملية التعليمية التواصلية، يقوم الأستاذ بشرح نقطة معينة، وبعد الانتهاء يسأل الطلاب قائلاً: هل فهمتم؟ تلقائياً يتبادر إلى ذهنهم أن الأستاذ يريد جواباً صريحاً (نعم أو لا)، وذلك لمواصلة إكمال بقية نقاط الدرس أو تقديم مدلولات أخرى تعين على الفهم.

وتكمن مهمة متضمنات القول في «رصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره»⁽¹⁶⁾، وذلك لإبانة المعنى الخفي للقول

المضمر، والذي يعرف (القول المضمر) بأنه «كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث»⁽¹⁷⁾ الذي يتشكل فيه القول، والذي يحتمل المطابقة أو المخالفة للمعنى الحرفي.

كما تؤدي متضمنات القول دورا كبيرا في تحقيق عملية التأويل؛ فهي تساعد الطالب على معالجة المعلومات انطلاقا من المعرفة اللغوية القبلية التي تتجلى فيها متضمنات القول أو ما يعرف بالترسبات الفكرية المدركة والمخزنة في الذهن، والتي تحتاج إلى التفعيل والإدماج والتداخل مع المعرفة المقدمة (المكتسبة) في الدرس ليكمل بعضها بعض، فيدركها عقل الطالب في صورة متسلسلة ومتراصة.

وتقوم إبانة متضمنات القول على نوعين: الافتراض المسبق والقول المضمر.

1.3.3 الافتراض المسبق:

يهتم الافتراض المسبق بالافتراضات والمعلومات والمعطيات المشتركة والمعترف بها بين المتكلم والمتلقي، فقد عرّفه ديكرود «على أنه العنصر الدلالي الخاص بالقول»⁽¹⁸⁾، مثال على ذلك: "أعطني قارورة الماء". الافتراض السابق: قارورة الماء موجودة، وبالتالي هناك مبرر يستدعي من المتلقي إحضار قارورة الماء، رغم قدرة المتكلم على إحضارها، وهذا راجع لعلاقة المتكلم مع المتلقي ولسياق الحال⁽¹⁹⁾ الوارد فيه القول.

إذن على الدارسين التمييز بين «الاستعمال العام للفظ الافتراضي في لغة الحياة اليومية والاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي»⁽²⁰⁾.

لقد ميّز الباحثون بين نوعين من الافتراضات المسبقة هما:⁽²¹⁾

1/ الافتراض المنطقي المسبق: المبني على العلاقة التالية: إذا كانت الجملة "أ" والموقف "أ" صادق، فإن الجملة "أ" والموقف "ب" المفترض صادق أيضا والعكس صحيح.

2/ الافتراض التداولي المسبق: لا يتأثر لا بالصدق ولا بالكذب، أو النفي والصحة، فإذا قدمت جملة صحيحة ثم نفيتها فإن الافتراض المسبق يبقى قائما، مثال: لو قلت: "سيارتي جديدة". ثم قلت: "سيارتي ليست جديدة". فالافتراض المسبق في الحالتين: لديك سيارة.

2.3.3 الأقوال المضمرة:

نقصد بها «كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن الاستعمال»⁽²²⁾، ويمكننا استخدام مصطلح قريب منه له نفس المفهوم وهو التلميح، ونقصد به قول المتكلم بما يرغب فيه دون أن يصرح بذلك.

ونجمل القول على أن الفرق بين الافتراض المسبق والأقوال المضمرة، يكمن في كون الافتراض المسبق يولده السياق التواصل، في حين تتولد الأقوال المضمرة من ملابسات الخطاب⁽²³⁾.

إنّ نجاح الفعل التواصل في العملية التعليمية التعلمية يعتمد على معرفة الأستاذ بقدرة الطالب على فهم الخطاب الذي يوجهه إليه، وعلى مدى اجتهاد هذا الأخير في إدراك مآل أقوال الأستاذ، من خلال

تعرفه على أداة "متضمنات القول" المتمثلة في الافتراضات المسبقة بنوعها، والأقوال المضمرة التي تتعدد بتعدد السياقات التي تنجز فيها، وتظهر أهمية هذه الأداة أكثر في مستويات خاصة في دروس البلاغة.

فإنّ دراسة الاستعارة من خلال رؤية تداولية تتشعب في عدة زوايا لتعدد الأفكار التداولية التي ترتبط بالاستعارة وترتبط بها الاستعارة، إذ يقسم سيرل المنطوق الاستعاري منطلقاً من هذا التمييز إلى ثلاثة أنواع: - المنطوق الاستعاري البسيط: وفيه تقوم الاستعارة على الاستبدال المحدد كلمة بكلمة أخرى، أي كلمة ملفوظة بأخرى مضمرة، وتمثل المقصود المجازي أو قصد المتكلم.

- المنطوق الاستعاري المركب غير المحدد: وهو يتسم باتساع مجال المعاني التي يحتملها المنطوق الاستعاري، إذ لا يتحدد المضمر هنا في كلمة واحدة بل يتشعب بين عدة دلالات مجازية يحتملها البعد المجازي الاستعاري.

- الاستعارة الميتة: وفيها يهمل المعنى الأصلي للملفوظ، ليكون المعنى المجازي الاستعاري هو الملفوظ، فهي التي استخدمها الناس لفترة طويلة من الزمن بحيث أصبحت شائعة، مما أدى إلى أننا لا نشعر بالفرق بين الموضوع والصورة، أي أنه من غير المتوقع أن يشعر الكاتب أو القارئ بوجود أي صورة استعارية لأنّ هذه الصورة قد اختفت نتيجة الاستخدام المتكرر، وقد نبّه عبد القاهر الجرجاني إلى هذا الملمح بقوله: «اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى أنك تجد في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا رأيت أسداً، ووردت بحراً، ولقيت بدراً، والخاص النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال»⁽²⁴⁾، وكذلك يولي جون سيرل التمييز بين المعنى الحرفي ومعنى المتكلم أهمية في دراسة المنطوق الاستعاري، فإنّ مشكلة الاستعارة عنده هي جزء من مشكلة لغوية عامة هي تفسير الكيفية التي ينغزل فيها معنى المتكلم عن معنى الجملة، أو بعبارة أخرى: كيف تقول شيئاً، وتقصد آخر؟⁽²⁵⁾.

كذلك نجد جيري مورغان J. I. Morgan في دراسته تعليقات على تداولية الاستعارة «التفت إلى البعد التداولي في تأويل الاستعارة وتحليلها، إذ لاحظ الفرق الذي يقدمه سيرل بين المعنى الحقيقي للجملة، والمعنى اللفظي لها، هو فرق مهم يعد إنجازاً مهماً في دراسة الاستعارة»⁽²⁶⁾، وإذا قلت "فلان حائط" فإنّ القراءة الاستعارية ليست مجرد مصادفة لغوية، بل إنّها مشتقة من المعنى الحرفي، يضاف إلى ذلك أن عدد القراءات المجازية الموجودة في الجملة يمكن أن تأخذ عدداً كبيراً من التأويلات الاستعارية اعتماداً على السياق والمضمون على سبيل المثال أ قالها معلم لأحد طلابه، أم قالها مدرب كرة قدم للاعب الخط وغيرها.

وقد شاعت استعارة الأسد أو بعض صفاته للإنسان، وفي هذه الاستعارة تعمل اللغة على نحو استعاري ينفي على الكلمات معانيها الحرفية، ويكسبها معاني سياقية، فالأسد هنا يصير هو الإنسان الذي بلغ مبلغاً كبيراً من الشجاعة والبأس، وهذا التوسع في المعنى تحكمه ضوابط لغوية وتداولية لتتبع الدلالة من ورائه، والسياق هو الذي يستبقي المعنى الملائم، ويستبعد ذلك الذي لا يناسب المقام، ولعل أهم العناصر التداولية في تفسير الاستعارة هو السياق الثقافي: إذ شاع في السياق الثقافي البلاغي العربي تشبيه الشجاع بالأسد، وجمال العيون بعيون المها، والقدر بالبأن، واللمعان بالدينار، والسواد بالليل.

وتم بعد آخر في الرؤية التداولية للاستعارة يتمثل في ربط تأويل الاستعارة بمبادئ غرايس الأربعة «الكَم والكيف والإضافة والجهة والمتفرعة عن مبدأ التعاون»⁽²⁷⁾.

4.3 الحجاج:

يعد الحجاج النموذج الإبلاغي المناسب بين المتكلم والمتلقي، لأنّه شكل من أشكال التواصل والخطاب والنقاش والحوار، لا يتبع نمطا معينا وليست له موضوعات محددة، بل موضوعاته هي قضايا تشمل كل المعارف الإنسانية المشتركة، والمطالب الإخبارية والتوجهات الظرفية لإنشاء معرفة عملية، حتى تلك التي تعد برهانية لا تخضع لحدود تفصلها عن كل العلوم الإنسانية (منطقية، تداولية، لسانية ومعرفية، فلسفية وغيرها) ... وهو كل الأشكال: المنطقية الصورية، الرمزية، والمعرفية والواقعية، يوظف منها ما يلزم بناءه ويؤسس قواعده وأدلتة وحججه وهو بقدر ما يوظف هذه الأشكال فإنه يُكفيها ولا يخرج عنها ولا يتجاوزها، لأنّه يتمحور بين شكل العلم المعرفي (القوالب والأنظمة الذهنية) وبين العقل المتكلم (في نظرية المسألة الفلسفية)⁽²⁸⁾. ويحتكم للطابع الفكري الاجتماعي، ويهدف إلى الإقناع بأكبر عدد ممكن من الصور الاستدلالية.

وقد ذهب الباحث عشير عبد السلام إلى أن البلاغة علم يهتم بفن الإقناع واستنباط الحجج بقوله: «لقد عادت البلاغة اليوم، وتباينت وجهات نظر المشتغلين بقضاياها، كما حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتد باعتبارها فناً للتعبير، أو فناً للإقناع، تجاذبها بشكل مستمر وحاد، فحين يتسع مجال النقاش الديمقراطي تهيم كفن الإقناع (أرسطو محاكم أثينا، ومجالس الشعب)، وحين يتقلص مجال الحريات ترتكن في الأديرة والمعابد كفن للتعبير والإعجاز (البلاغة العربية والبلاغة الكلاسيكية في عهد سلطة الدين (كاثوليكية)»⁽²⁹⁾.

، ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط وثيق بالتداولية، وبما أنّ الحجاج من الأساليب الإقناعية التعليمية، فهو يهدف إلى «استمالة المتلقي لما يعرض عليه، وأن يجعل العقول تدعى لما يطرح عليها، وأن يزيد في درجة إذاعتها باعتماد وسائل التأثير في عواطفه وخيالاته وإقناعه»⁽³⁰⁾، وبالتالي ترسخ المعرفة في ذهن الطالب (المتلقي) استيعاباً وإدراكاً لا حفظاً وتنظيراً.

5.3 السياق:

ويقابله مصطلح المقام في التراث العربي، وهو كل المواقف الاتصالية بمكوناتها: الثقافية والفكرية... الخ التي تتم بها سيرورة العملية التواصلية بين المخاطب والمخاطب.

فهو «الإطار العام الذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام والفهم بين طرفي الخطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر. فمن عناصره العلاقة بين المتخاطبين سواء أكانت سلبية أم إيجابية، ولذلك فعدم وجودها يُعدّ توجهاً للمرسل في اختياراته. كما أنّ الزمان والمكان اللذين يتلقّظ فيهما المرسل بخطابه من عناصره الهامة؛ فما يصلح لزمان قد لا يصلح لآخر، وما يناسب مكاناً قد لا يناسب مكاناً آخر؛ فمعرفة عناصر السياق تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها. وعليه فإنّ اختيار الأدوات والآليات اللغوية يعدّ انعكاساً للعناصر التي تشكّل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز

من خلال لغة الخطاب، وبمعرفة يمكن تفكيك هذه اللغة للوصول إلى المعنى المقصود أو الغرض المراد»⁽³¹⁾، فكل من الملاحظات والظروف، والقرائن الخارجية المحيطة بعملية التواصل تتكاثف لتؤثر في دلالة الخطاب.

وتكمن أهمية السياق في تأطير الخطاب التواصلي التعليمي بنوعيه الشفهي والكتابي، كما تأتي أهميته أيضا في كون العديد من الملفوظات لا يمكن تحديد معناها بدقة إلا بمعرفة السياق الذي وردت فيه، وإن إهماله سيؤدي إلى «عدم تمكين المتلقي من إدراك بعض ألوان المقام الذي قيلت فيه، فكلما كان التصور للمقام دقيقا كان إدراك النص أيسر وفهم علاقته متاحة للدارس والناقد»⁽³²⁾ معا.

ولعل من أبرز وأهم ما تستند عليه التداولية هو «الدلالة الاستعمالية التي لا تؤمن بمبدأ القاعدة المعيارية وإنما بمبدأ الذوق اللغوي الذي همّه الوحيد هو تحقيق عملية تواصلية إبلاغية بين طرفي الحدث الكلامي»⁽³³⁾، فهي تدرس بنية اللغة انطلاقا من وظيفتها التواصلية، كما أن المبادئ الإجرائية التي تقوم عليها تساعد الأستاذ على تجاوز التعليم التلقيني أثناء التدريس المعرفي، وبالتالي إكساب الطالب كفايات لغوية وتواصلية ترفع من مستوى أدائه المعرفي.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن وظائف اللغة تتحدد من منظور استعمالي من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: من يتكلم، إلى من يتكلم، ماذا نقول عندما نتكلم، كيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر؟.

6. الخاتمة:

وفي الختام نخلص إلى ما يلي:

- تعددت الدراسات المتعلقة باللغة منذ الأزل إلى يومنا هذا، وكل دراسة ركزت على جانب معين، وآخر ما توصل إليه البحث اللغوي العلمي هو دراسة اللغة في سياقها التواصلي الاجتماعي، وقد أرست معالم هذه الدراسة تيارات ومناهج مختلفة منها: تحليل الخطاب، اللسانيات الاجتماعية، التداولية... الخ، ورغم تعدد اتجاهات هذه التيارات إلا أنها تركز على الجانب التواصلي، وتحاول ضبط فعل التواصل.

- تهتم اللسانيات التداولية بدراسة اللغة عند استعمالها في الطبقات المقاميّة المختلفة، من خلال منجز لفظي في سياق معين. كما تهتم أيضا ببيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر، وتلفت الانتباه إلى أن اللغة ليست للإخبار ونقل الأفكار فقط، بل تؤدي أيضا وظيفة التأثير الاجتماعي في الآخرين.

- تعنى اللسانيات التداولية مثلا بدراسة التواصل بشكل عام بدءا بظروف إنتاج الخطاب التعليمي، وتتطلب من المتكلم (الأستاذ) ألفاظا وعبارات واضحة المقصدية لبلوغ تواصل سليم، وصولا إلى عناصر السياق وغيرها، وبالتالي في رأينا هي المنهج المناسب لتحليل الخطابات التعليمية.

- قدمت اللسانيات التداولية للعملية التعليمية أدوات إجرائية تعين على فهم وتحليل الخطابات التعليمية، فهي تقدم العامل الوظيفي للغة على العامل القاعدي، وبذلك يعطي انطبعا للطلاب بأن اللغة تتميز بالطابع الاستعمالي في المقام الأول.

- نخطئ حين نعتبر البلاغة فقط جمالية للغة، وإنما هي أيضا فلسفة التفكير، وثقافة المجتمع، وأسلوبية الحوار، وقد أشار إلى هذا "بارت" حيث ذهب إلى أن البلاغة محاجة ووسيلة تفكير وتقنية للإقناع، إضافة إلى كونها فنا للتعبير والقول وجودة الحديث ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط وثيق بالتداولية.

7.الهوامش:

(1) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م، ص:52.

(2) طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، الدار البيضاء، ط2، (د.ت)، ص:243.

(3) استراتيجيات الخطاب مقارنة تداولية لغوية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، مارس 2004م، ص:32.

(4) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006م، ص:69.

(5) عبد القادر لورسي، المرجع في التعليمية، جسر للنشر والتوزيع، ط1، 1436هـ/2014م، الجزائر، ص:21.

(6) A.A.BOUACHA, 1984, (La théorique et ses pouvoirs) Peter Lang Berne, Le discours universitaire.

نقلا عن خدير المغيلي، 2010م، تعليمية النص التعليمي للغة العربية وآدابها في الجامعة، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، الجزائر، العدد8، ص:361.

(7) L.DABENE et AL, juin 1990, Variation et rituels en classe de langue, P52, Paris, Hatier. Credif. ،

نقلا عن المرجع نفسه، ص 361.

(8) ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ت:صابر حباشه، دار الحوار، سورية، ط2، 2007م، ص:62.

(9) ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جددة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011م، ص:49.

(10) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب مقارنة تداولية لغوية، المرجع السابق، ص:137.

(11) التداولية من أوستن إلى غوفمان، المرجع السابق، ص:68.

(12) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، المرجع السابق، ص:92.

(13) عز الدين الحكيم، الظاهرية وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2003م، ص:28.

(14) انظر: استراتيجية الخطاب مقارنة تداولية لغوية، المرجع السابق، ص:201.

(15) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار طليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، تموز (يوليو) 2005م، ص:201.

(16) التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، المرجع نفسه، ص:30.

(17) التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، المرجع نفسه، ص:32.

(18) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م، ص:113.

(19) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، المرجع السابق، ص:26.

(20) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، المرجع نفسه، ص:27.

(21) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، المرجع نفسه، ص:27. بتصرف

(22) تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، المرجع السابق، ص:115.

(23) ينظر: التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، المرجع السابق، ص:32.

(24) بلبع عيد، الرؤية التداولية للاستعارة، مجلة علامات، جامعة المنوفية، مصر، ع23، 1994م، ص:100.

(25) ينظر: بلبع عيد، المرجع نفسه، ص:100.

- (26) أبو العدوس يوسف، التشبيه والاستعارة من منظور مستأنف، دارالمسيرة، ط1، الأردن، 2007م، ص: 198-199.
- (27) بليغ، عيد، المرجع السابق، ص: 100.
- (28) ينظر: كل من عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص: 12. وطه عبد الرحمن، في أصول الحوار وأفعال الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص: 65.
- (29) عشير عبد السلام، إشكالات التواصل والحجاج مقارنة تداولية معرفية، بحث لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية، 2000م، ص: 14.
- (30) في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، المرجع السابق، ص: 86.
- (31) إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، المرجع السابق، ص: 4 المقدمة.
- (32) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية للنشر وندجمان، مصر، ط1، 1994م، ص: 304.
- (33) لزعر مختار، جانفي 2014م، بين الاستعمال والمفاهيم النحوية مقارنة تداولية في تعليمية النحو لأقسام اللغة العربية وأدائها، مجلة الموروث، الجزائر، العدد 3، ص: 104.